

الفصل الرابع : بشارةُ يوحنا المعمدان وعماد يسوع

١- الاستقبال



ليوحنا المعمدان مكانةٌ مهمّةٌ في حياة يسوع. لقد أعدَّ الطريقَ له من خلال حياته وتعليمه واستشهاده. ويكتسب أهميةً عظيمةً بسبب تعميده له؛ فقد قبل المسيح أن يحنى رأسه أمامه ويعتمد عن يده. وأثناء العباد، جرى ظهورٌ للثالوث الأقدس فأعطى دفعاً جديداً في انطلاقة يسوع لحياته العلنية.

من هو يوحنا المعمدان؟ وما أهمية عماد يسوع؟ وكيف نفهم سرّ الثالوث الأقدس من خلال تعليم الكنيسة وحياتنا اليومية؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في اجتماعنا اليوم.

٢- قراءة الإنجيل وتفسيره: بشارةُ يوحنا المعمدان وعماد يسوع (متى ٣: ١-١٧)

أفي تلك الأيام، ظهر يوحنا المعمدان يُنادي في برية اليهودية فيقول: ^٢ توبوا، قد اقترب ملكوت السموات. ^٣ فهو الذي عناه النبي أشعيا بقوله: صوت مُنادٍ في البرية: أعدوا طريق الرب واجعلوا سبيله قويمه. ^٤ وكان على يوحنا هذا لباس من وبر الإبل، وحول وسطه زناز من جلد. وكان طعامه الجراد والعسل البري. ^٥ وكانت تخرج إليه أورشليم وجميع اليهودية وناحية الأردن كلها، ^٦ فيعتمدون عن يده في نهر الأردن مُعترفين بخطاياهم. ^٧ ورأى كثيراً من الفريسيين والصدوقيين يقبلون على معموديته، فقال لهم: يا أولاد الأفاعي، من أراكم سبيل الهرب من الغضب الآتي؟ ^٨ فأثمروا إذا ثمراً يدل على توبتكم، ^٩ ولا يخطر لكم أن تعللوا النفس فتقولوا إن أبانا هو إبراهيم. فإني أقول لكم إن الله قادرٌ علي أن يخرج من هذه الحجارة أبناء إبراهيم. ^{١٠} ها هي ذي الفأس على أصول الشجر، فكل شجرة لا تُثمر ثمراً طيباً تُقطع وتلقى في النار. ^{١١} أنا أعمدكم في الماء من أجل التوبة، وأمّا الآتي بعدي فهو أقوى مني، من لست أهلاً لأن أخلع نعليه. إنه

سُيَعِّدُكُمْ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ وَالنَّارِ. ١٢ بِيَدِهِ الْمَذْرَى يُنْقَى بِيَدَرِهِ فَيَجْمَعُ قَمَحَهُ فِي الْأَهْرَاءِ،
وَأَمَّا التَّنُّ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لَا تُطْفَأُ.

١٣ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ظَهَرَ يَسُوعُ وَقَدْ أَتَى مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى الْأُرْدُنِّ، قاصِدًا يُوحَنَّا لِيَعْتَمِدَ عَنْ
يَدِهِ. ١٤ فَجَعَلَ يُوحَنَّا يُبَايِعُهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَحْتَاجُ إِلَى الْإِعْتِمَادِ عَنْ يَدِكَ، أَوْ أَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ؟ ١٥
فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: دَعْنِي الْآنَ وَمَا أُرِيدُ، فَهَكَذَا يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نُتِمَّ كُلُّ بَرٍّ. فَتَرَكَهُ وَمَا أَرَادَ. ١٦
وَاعْتَمَدَ يَسُوعُ وَخَرَجَ لَوَقْتِهِ مِنَ الْمَاءِ، فَإِذَا السَّمَوَاتُ قَدْ انْفَتَحَتْ فَرَأَى رُوحَ اللَّهِ يَهْبِطُ كَأَنَّهُ
حَمَامَةٌ وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ. ١٧ وَإِذَا صَوْتُ مِنَ السَّمَوَاتِ يَقُولُ: هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي عَنْهُ
رَضِيتُ.

١.٢ - الشَّرْحُ

أ- تعريفُ يُوحَنَّا المَعْمَدَانِ (متى ٣: ١-١٢)

إِسْمُ يُوحَنَّا يَعْنِي «اللَّهُ حَنَانٌ، اللَّهُ رَحْمَةٌ»، هُوَ رِسَالَةٌ رَحْمَةٌ لِلَّهِ لَيْسَ فَقَطْ لِشَيْخَيْنِ عَاقِرَيْنِ زَكَرِيَّا
وَأَلْيَصَابَاتِ إِنَّمَا هُوَ بَدَايَةُ الْمَرْحَلَةِ التَّحْضِيرِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ لِتَحْقِيقِ الْوَعْدِ بِإِعْطَاءِ الْخَلَاصِ. إِنَّهُ نَبِيُّ
الْعَلِيِّ الَّذِي يَفُوقُ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ آخِرُهُمْ إِذْ يَفْتَتِحُ الْإِنْجِيلَ. حَيًّا مَجْمِيءَ الْمَسِيحِ وَهُوَ لَا يَزَالُ
فِي حَشَا أُمَّهُ عِنْدَمَا امْتَلَأَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ أَثْنَاءَ زِيَارَةِ مَرْيَمَ لِأَلْيَصَابَاتِ؛ وَجَدَ فَرَحَهُ فِي أَنْ يَكُونَ
صَدِيقَ الْعَرِيسِ؛ وَأَشَارَ إِلَى تَلَامِيذِهِ أَنْ يَسُوعُ هُوَ «حُمْلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ» (يُو ١: ٣٦).
إِنَّهُ إِبِلِيَّا الْمَزْمَعُ أَنْ يَأْتِيَ لِيُهَيِّئَ لِلرَّبِّ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا (لُو ١: ١٧)، لَكِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ نَبِيِّ، وَلَمْ يَقُمْ فِي
مَوَالِيدِ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْهُ، لَقَدْ خَتَمَ مَجْمُوعَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَبَشَّرَ بِحُلُولِ التَّعْزِيَةِ عَلَى الشَّعْبِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي
كَانَ مَقْهُورًا وَمُنْتَظَرًا الْخَلَاصِ.

تَحْضِيرُهُ الْمُبَاشِرَ لِمَجِيءِ الْمَسِيحِ كَانَ مِنْ خِلَالِ الْعِمَادِ بِالْمَاءِ لِلتَّوْبَةِ. لَمْ تَكُنْ فِي مَعْمُودِيَّتِهِ نَارٌ تُحْرِقُ
خَطَايَا الْآتِينَ إِلَيْهِ، إِنَّمَا كَانَتْ الْمِيَاهُ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا وَسِيلَةً لَجَعْلِهِمْ مِنَ الْجَمَاعَةِ التَّائِبَةِ الْمُنْتَظَرَةِ غُفْرَانِ
الْخَطَايَا. أَمَّا مَعْمُودِيَّةُ يَسُوعَ الَّتِي سَلَّمَهَا لِكَنِيسَتِهِ فَهِيَ مَعْمُودِيَّةٌ فِي الْمَاءِ وَالرُّوحِ وَالنَّارِ وَهِيَ بِمِثَابَةِ
وِلَادَةِ جَدِيدَةٍ لِلإِنْسَانِ.

مِنْ أَهَمِّ مِيزَاتِهِ التَّجَرُّدُ وَالتَّوَاضُّعُ. كَانَ لِبَاسُهُ مِنْ وَبَرِ الْإِبِلِ وَطَعَامِهِ الْجِرَادِ وَالْعَسَلِ الْبَرِّيِّ (متى ٣:
٤). جَعَلَهُ تَوَاضُّعُهُ يَقُولُ عَنِ الْمَسِيحِ: «لِي أَنْ أَقْصُصَ وَلَهُ أَنْ يَنْمُو... الْآتِي وَرَائِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي...
وَلَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ أُحَلَّ رِبَاطَ حِذَائِهِ» (متى ٣: ١١). كَانَ يُوحَنَّا السَّرَاجُ أَمَّا يَسُوعُ فَهُوَ النُّورُ، وَكَانَ
الصَّوْتُ الصَّارِخَ أَمَّا يَسُوعُ فَهُوَ الْكَلِمَةُ.

إلى جانب التواضع كان ليوحنا الجرأة في قول الحقيقة. فطلب إلى الفريسيين والصدوقيين المقبلين إلى معموديته أن يثمروا ثمرا يليق بتوبتهم وإلا «سيصبحون كأولاد الأفاعي لا يستطيعون الهروب من الغضب الآتي» (متى ٣: ٧). الأفعى هي رمز للشّر وتذكّر بأفعى التكوين التي أضلّت حواء (تك ٣: ١). قول الحقيقة بجرأة جعله يشجب تصرّف هيرودس الذي تزوّج من امرأة أخيه فيلبس وهو حيّ: هذا ما كلفه السجن، ومن ثم الاستشهاد.

ب- عماد يسوع (متى ٣: ١٣-١٧)

عندما مانع المعمدان يسوع إذ رآه آتيا للاعتماد عن يده، أجابه يسوع: «دعني الآن، فهكذا يجب أن أتمم كل بر» (متى ٣: ١٥). فالبر هو الخضوع التام لمشيئة الله الخلاصية. لا يحتاج يسوع البار إلى عماد يوحنا، لكنّه اعتمد تضامنا مع الخطاة المعتمدين، وتأييدا لرسالة المعمدان التي تعدّ إعدادا مباشرا للزمن المسيحيّ.

يوم عماد المسيح، ظهر الثلوث جليا؛ انفتحت السماء على الأرض بعد طول إغلاق بسبب خطيئة الإنسان، وتحقق خلق جديد برفرة الحمامة على المياه (تك ١: ٢). أما صوت الأب، حسب إنجيل متى، فكان موجهاً إلى جميع السامعين والقراء على مرّ العصور قائلاً لهم إنه الابن الحبيب، الذي أشار إليه إسحق حبيب أبيه إبراهيم الذي حمل الحطب إلى المحرقة (تك ٢٢: ٢)، وأنه عبد الله المتألم الذي يحمل الحق إلى العالم (أش ٤٢: ١). وهكذا نرى أن اعتماد يسوع بهاء الأردن يُضّرّ لاعتماده بالدم على الصليب.

٢.٢ - التأويل

يُعَلِّمنا يوحنا المعمدان أن نجمع في حياتنا بين التواضع والجرأة في قول الحقيقة. إن سنبَل القمح المليء بالحبوب ينحني! والذي يملك الحقيقة يقولها بتواضع وتجرد دون أن يجرح بكلامه الآخرين. فالمحبة تسرّ جما من الخطايا (١ بط ٤: ٨).

إن مجيء ملكوت السموات يحثنا على أن نثمر ثمرة التوبة. لا يمكننا أن نقول فقط «يارب يارب»، بل علينا أن نعمل الأعمال اللائقة بالوضع الجديد. فالتوبة تعني تغيير الذهنية الخاطئة والانخراط بكل جدية في واقع الحياة الجديدة المبنيّة على الإيمان بالله وعيش المحبة بين الأخوة. إن إنجيل اليوم يتطلّب منا ألا نكون مدّعين أننا نمتلك خلاصنا ومُتكبّرين على من لا يُشاطروننا طريق الإيمان نفسه. فقد نعتقد أنه إذا اعتمدنا وأصبحنا مسيحيين فهذا كافٍ لخلاصنا، كما اعتقد اليهود الآتين إلى معمودية يوحنا أن انتسابهم إلى إبراهيم هو كافٍ لخلاصهم (متى ٣: ٩). لا ضمانّة للخلاص،

سوى بِثَمَرٍ بَرٍّ وَأَعْمَالٍ تَوْبَةٍ تَلِيْقُ بِالْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ لِأَبْنَاءِ اللَّهِ.

وَقِصَّةُ اعْتِمَادِ يَسُوعَ تَدْعُونَا لِعَيْشِ بُنُوْتِنَا لِلآبِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ. يَوْمَ اعْتِمَادِ يَسُوعَ أَكَّدَ الآبُ أَنَّهُ ابْنُهُ الْحَبِيبُ؛ وَيَوْمَ عِمَادِنَا نُصَبِحُ أَبْنَاءَ اللَّهِ الآبِ، أُخُوَّةَ لِيَسُوعَ، وَهَيْكَلًا لِلرُّوحِ الْقُدُسِ. لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَنْسَى هَوِيَّتِنَا الْجَدِيدَةَ هَذِهِ: نَحْنُ أَبْنَاءُ لِمَلِكٍ خَلَّصَنَا بِابْنِهِ وَيُجَبِّنَا بِرُوحِهِ. كَرَامَتُنَا مِنْ كَرَامَتِهِ، وَحَيَاتُنَا مِنْ حَيَاتِهِ، فَعَلِينَا دَائِمًا أَنْ نَتَذَكَّرَ فِعْلِيًّا هَذِهِ الْعِلَاقَةَ الْجَدِيدَةَ مَعَ الثَّالِثِ الْأَقْدَسِ الَّتِي نَلْنَاهَا بِالْعِمَادِ.

٣- التَّعْلِيمُ اللاهوتيُّ والرُّوحِيُّ: الثَّالِثُ الْأَقْدَسُ

يُمْكِنُكَ أَنْ تَعْرِفَ اللَّهَ مِنْ بَعِيدٍ كَمَا يُمَكِّنُكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ فِي سِرِّهِ. كَمَنْ يَمُرُّ مِنْ أَمَامِ كَنِيسَةٍ وَيُشَاهِدُ جُدْرَانَهَا، قَدْ يُقَرَّرُ الدُّخُولَ لِيَكْتَشِفَ جَمَاهَا الدَّاخِلِيَّ، أَوْ يَبْقَى عَلَى مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ مِنْ وَاجِهَتِهَا الْخَارِجِيَّةِ. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَقُولَ إِنَّهُ وَاحِدٌ وَهَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ إِنْ اقْتَرَبْتَ مِنْهُ أَكْثَرَ رَأَيْتَ أَنَّهُ ثَالِثٌ. فَقَدْ حَسُنَ لَدَى اللَّهِ بِمَحَبَّتِهِ لِلنَّاسِ أَنْ يَكْشِفَ لَهُمْ عَنْ ذَاتِهِ، فَخَاطَبَهُمْ مِرَارًا فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُمْ وَاعْتَنَى بِهِمْ. ثُمَّ فِي مِلْءِ الْأَزْمِنَةِ أَرْسَلَ ابْنَهُ مُتَجَسِّدًا مِنْ مَرْيَمِ الْعَذْرَاءِ، وَعِنْدَ قِيَامَتِهِ مَنَحَ الرُّوحَ الْقُدُسَ لِكَنِيسَتِهِ وَقَالَ لِتَلَامِيذِهِ: «تَلْمِذُوا كُلَّ الْأُمَّمِ، وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ».

الفِكرَةُ الْمَسِيحِيَّةُ حَوْلَ اللَّهِ الثَّالِثِ هِيَ نَتِيجَةُ لِلوَحْيِ الَّذِي قَبَلَتْهُ الْكَنِيسَةُ. فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي كَشَفَ عَنْ ذَاتِهِ تَدْرِيجِيًّا، وَكَانَتْ الذُّرُورَةُ بِيسُوعَ الْمَسِيحِ وَبِالرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي يُرَافِقُ الْمُؤْمِنِينَ لِيَفْهَمُوا كُلَّ الْحَقِيقَةِ الْمُتَجَلِّيَّةِ بِالرَّبِّ يَسُوعَ. لَيْسَتْ الْفِكرَةُ مِنْ إِخْتِرَاعِ الْمَسِيحِيِّينَ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، هِيَ نِعْمَةٌ، وَقَدْ حَمَلُوا هُمْ مَسْئُولِيَّةَ إِعْلَانِهَا لِلْعَالَمِ وَبَدَّلُوا فِي سَبِيلِهَا الْكَثِيرَ وَبَيَدَّلُونَا.

وَنَحْنُ نُوْمِنُ أَنَّ اللَّهَ وَاحِدًا! فَالثَّالِثُ لَا يَعْنِي تَعُدُّدَ الْآلِهَةِ، بَلْ إِنَّ الْمَحَبَّةَ الْكَامِلَةَ، الْمُتَبَادَلَةَ بَيْنَ الآبِ وَالابْنِ، تُحَقِّقُ وَحَدَّتْهَا. وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ الَّتِي هِيَ جَوْهَرُ اللَّهِ هِيَ الرُّوحُ الْقُدُسُ. لِذَلِكَ فَاللَّهُ الْوَاحِدُ لَيْسَ وَحِيدًا، الْمَحَبَّةُ شَرِكَةٌ وَالْمَحَبَّةُ وَاحِدَةٌ.

إِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ قَدْ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ اللَّهِ، وَبِمَا أَنَّ اللَّهَ شَرِكَةٌ، فَالْإِنْسَانُ لَا يُحَقِّقُ صُورَةَ اللَّهِ فِيهِ إِلَّا بِأَنْ يَعِيشَ شَرِكَةً حَقِيقَةً مَعَ أُخُوْتِهِ الْبَشَرِ. هَكَذَا يُصَبِحُ مَثَلًا لِلزَّوْجَانِ «جَسَدًا وَاحِدًا». وَنُصَبِحُ نَحْنُ الْكَثِيرِينَ «جَسَدًا وَاحِدًا» أَي جَسَدَ الْمَسِيحِ الْكَنِسِيِّ.

عظمة العباد

عَظِيمٌ هُوَ الْعِمَادُ الْمَوْعُودُ: إِنَّهُ إِعْتَاقُ الْأَسْرَى وَغُفْرَانُ الْخَطَايَا، وَمَوْتُ الْخَطِيئَةِ وَالْمِيلَادُ الثَّانِي لِلنَّفْسِ، وَثَوْبُ النُّورِ وَطَابَعُ مُقَدَّسٍ لَا يُمَحَى، وَمَرَكَبَةٌ إِلَى السَّمَوَاتِ، وَبَهْجَةُ الْفِرْدَوْسِ، وَعُرْبُونُ الْمَلَكُوتِ وَعَطِيَّةُ النَّبِيِّ. وَلَكِنَّ فِي الطَّرِيقِ تَنِينًا يُسَبِّهُ عَدَمَ إِيمَانِكَ. إِنَّهُ يَرُودُ طَالِبًا مَنْ يَلْتَهُمْ. وَلِلْوَصُولِ إِلَى أَبِ الْأَرْوَاحِ، لَا بُدَّ لَكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنْ هَذَا التَّيْنِ. وَمَا السَّبِيلُ إِلَى النِّجَاةِ مِنْهُ؟ يَا نَتَعَالِكُمُ الْغَيْرَةَ عَلَى نَشْرِ إِنْجِيلِ السَّلَامِ، فَإِذَا لَدَغَكُمْ لَا يَجْرَحُكُمْ.

لِيَكُنْ إِيمَانُكُمْ رَاسِحًا وَرَجَاؤُكُمْ وَطِيدًا لَا يَتَزَعَّزَعُ. وَشُدُّوا نِعَالَكُمْ لِكَيْ يُمَكِّنَكُمْ أَنْ تَفْرُوا مِنَ الْعَدُوِّ وَتَمْتَلُوا فِي حَضْرَةِ الرَّبِّ. هَيِّئُوا قُلُوبَكُمْ لِتَقْبُلِ التَّعَالِيمِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي الْأَسْرَارِ الْمُقَدَّسَةِ. ثَابِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ لِكَيْ يَجْعَلَكُمْ اللَّهُ مُسْتَحِقِّينَ لِلْأَسْرَارِ السَّمَاوِيَّةِ الْخَالِدَةِ. لَا تَنْقَطِعُوا عَنْهَا لَيْلًا وَنَهَارًا. وَعِنْدَمَا يَتَعَدَّى النَّوْمُ عَنْ أَعْيُنِكُمْ، فَلْيَنْصَرِفْ ذِهْنُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ. وَإِذَا مَرَّتْ فِي بَالِكُمْ خَاطِرَةٌ سَيِّئَةٌ، فَادْكُرُوا الدِّينُونَةَ فَتَخَلُّصُوا. انصَرِفُوا إِلَى الدَّرَاسَةِ حَتَّى يَتَحَوَّلَ ذِهْنُكُمْ عَنْ أَبَاطِيلِ الْمَلَذَّاتِ. وَإِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: هَلْ أَنْتِ آتٍ لِلنُّزُولِ فِي الْمَاءِ، أَلَيْسَ فِي الْمَدِينَةِ أَحْوَاضٌ سَبَاحَةٌ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ تَيْنَ الْبَحْرِ هُوَ النَّاصِبُ لَكَ هَذِهِ الشِّرَاكِ. وَلَا تَعْتَبِرْ بِأَقْوَالِ الَّذِي كَلَّمَكَ، بَلْ فَكِّرْ بِاللَّهِ الَّذِي يَمْنَحُ الْقُوَّةَ. وَصُنْ نَفْسَكَ حَتَّى النِّهَايَةِ؛ فَإِذَا ثَبَّتَ عَلَى الرَّجَاءِ، تُصْبِحْ وَارِثًا لِلْخُلَاصِ الْأَبَدِيِّ. (مُقَدِّمَةُ الْعِظَاتِ، ١٦).

